ديدان الجرح الغائر

قصة بقلم محمد محمود عبد الرازق

لم يدهمنا خطر الجوع . فكلما كان ينفد زادنا او يكاد ، كانت الصحراء تقذف لنا بعض الاعراب للمساومة . رفضوا ان ياخذوا سلاحنا .. السلاح كثير .. في جوف هذه الارض صناديق ضخمة ما زالت بشحمها ، هكذا جابهونا بالحقيقة التي كنا نعرفها . اعطيناهم نقودنا .. ساعاتنا .. كل ما كان معنا . لم يبق غير السلاح والرداء، اخذوا ستراتنا ايضا . عندما ايقنوا اننا نتخلى عن سلاحنا ، قبل التخلي عن القطع الباقية التي تستر اجسادنا .. رضوا بالسلاح . كنا عطشى .. استعطفناه ، ذكرناه بالرحمة والله . قال بصلافة ـ وهو يتكيء على نتوء صخري ـ من بين اسنانه الصدئة ، القابضة على غليون رأسه من الفخار ، ويده قصبة غاب :

ـ هذا موسم يا رجال .

عندما قرأ على ملامحنا اننا سنعاود تذكيره بالاجر والثواب عند الله ، اعطانا ظهره ومضى . جلس بفظاظة يدخن غليونه متغافلا عن وجودنا ، غير مبال حقيقة بالصفقة . عظمة من مومياء فرعونية قديمة ظلت الاف السنين تحت الرمال ، وذئب اجرب عجوز رث الهيئة يلوك العظمة المدخنة .

قال علي :

ـ نقتله ..

بكل انهيارات المذلة والاسى التي افرغت شحنتها في عيني نظرت الى علي ، ثم تراخت يدي وسقط منها السلاح . كان من السهل قتله ، رصاصة واحدة وندخل الى خيمته نعب كل ما بها من ماء . علي نفسه لم يقو على تنفيذ اقتراحه . نظر الي نظرات عميقة ذليلة وبكى ، والاعرابي لاه عنا بغليونه كأننا تمثيلية تلفزيونية معادة .

زحفت اليه ..

كنت اسير على قدمي ، لكن بشعور من يزحف بوجهه على الحصى المحمى ، بنفس الانهيارات الذليلة الملحاحة التي فجرها عن آخرها جوف يحترق ولسان يلتهب . عندما اقتربت من قدميه ، قدماي ـ لا رأسي ـ هما اللتان اقتربتا ، انتزع سلاحي من يدي بغلظة جلف نفد صبره :

ـ هات ..

نهبت المسافة التي اتسعت بيني وبين علي في خطوتين ، خطفت سلاحه وقدمته للاعرابي كما يقدم نخاس ذليل اخر ما عنده مرضاة للامير . نادى الامير ذو الذقن النابتة شوكا كظهر قنفذ قذر ، بصوت فارغ اجوف لفظته الحجارة التي اصطدم بها على امراة لم انتبه الى اسمها . خرجت بنت ضئيلة تتعثر في تلافيفها ، خرجت في التو كأنما كانت تسترق السمع من وراء ستار ، منتظرة بزمزمية الماء خلفه . قدمتها الي فدفعتها الى فمي . خرعتان اثنتان ورن الصوت الاجوف الفارغ مصطدما بصاج الزمزمية :

ـ كفى ..

شلت كفى ..

انتزع الزمزمية من يدي ودغشها في فم علي . جرع علي جرعة والزمزمية في يد الامير المقتر . خلصها بحسم من بين شفتيه الجافتين وقذفها في وجه البنت :

ـ اعطيهما خبزا ..

عادت البنت بكسرتين من خبز شعير اسود ، رائحته كرائحة الرجيع الذي تبسسه امي للبط . كان معنا قوت يومنا ، لكن الرحلة عودتنا الا نرفض .. كشحاذ لا يملك ناصية الايام . الا نترك فرصة .. كغريب لا يأمن عواديها . لا جدال في انها عودتنا الاثرة .. غرستها كشوك صحراوي نهم في لحومنا .. تلك الاثرة التي تجعلك تختطف كل شيء وتستحوذ عليه ، كبخيل يقتله البغض والرغب من الناس . تلك الاثرة آلتي تجعلك تحب نفسك وتخشى هلاكها حتى تهلكها .

اخرجت البنت من بين تلافيفها الرثة الكثيرة ، زمزمية ماء دفعتها الى اقربنا سرا . استدار علي بالزمزمية في حركة تمويهية بارعة . تسمرت انا في مكاني . لاول مرة اعب من وجهها عبا .. انسى كل شيء الا روعة تلك الضئيلة الصغيرة التي خلقت الموقف الرائع . كانت ضئيلة كطفل .. كصبي مريض شاحب الوجه ناحله ، لحست الشمس عينيها فخبا نورهما او كاد . صغيرة .. صغيرة جدا . غير معقول ان تكون زوجة هذا الذئب الاجرب ذي الوجه القنفذي حتى لو فكرنا بعقلية القطيع واخلاقيات القبيلة . ربما طالت وقفتي اكثر مما يجب ، وابتسامتي ما زالت تلقي ظلالها علي شفتي ، منذ تخلصت من دهشتي واعتراني هدوء ابدي .. تمنيت ان يكون ابديا . ربما طالت وقفتها كذلك .. تلك التي لا اذكر اسمها ولكني اعيشه . نهرني الرجل بكل تجبر الصحراء القاحلة القاتلة ، والابتسامة المحبة المشوقة على شفتي جسد اثيري ملأ الموقف الرائع عليه حياته .

ـ ما الذي يوقفك الان ؟! ..

●

دهشنا لوجوده .. لم يكن معنا غير قليل من الماء .. والزاد . سرنا ليلتين دون ان نقابل او نتوقع مقابلة احد حتى يئسنا . ظننا اننا قد ضللنا الطريق . كان علي هو الذي منحني طاقة جديدة للسير. فلنسر ، لا نتوقف ابدا ، ولتسقنا اقدامنا الى الجزيرة العربية .. الى الاردن . كلها بلادنا .. كلها شواطىء امان .

قبل الغروب ، والارض صدئة الاديم ، لا تنبىء عن معركة دارت ، او موقع دمر . ارض قد تصلح لراهب .. لفرار الاصرار بالعقيدة من وجه الطغاة ، لكنها لا يمكن ان تكون او كانت مقصد الجندي في يوم من الايام . لقيناه .. منبطحا على بطنه ، عاريا تماما الا من سروال ممزق ، وطائر ذو رأس غريب ومنقار حاد ، ينقر في جرح غائر يحتل مساحة ليست هينة من الجانب الايسر لمؤخرته . دققت النظر في الجرح ، فصدتني عنه ديدان دقيقة تعيث فيه بحركة دائبة، ويقفز بعضها في الهواء قفزات مقززة ، ربما من شدة ازدحامها وتكالبها على الفنيمة . نطق علي الذي كان بقرب رأسه اخيرا بصوت مكتوم :

ـ انه لا يزال صاحيا .

●

تابعنا رحلتنا ..

قال موريس وهو يحاول الوقوف على قدميه ، انه لا يعرف الطريق ، لكنه يذكر انه قبل ان يفقد الوعي تماما ، كان اخر ما رأى ـ وكأنما فيما يرى النائم ـ اعرابي يهرول في هذا الاتجاه .

ليس امامنا الا ان نسير .. ليس معنا ماء .. ولاول مرة نسير بلا زاد .

لا بد ان الله كان معنا . حقيقة لديه شغل كثير في فيتنام .. مشغول لشوشته منذ زمن في فيتنام . لكن رحمته ربما تسع كل شيء كما تقول الكتب الدينية . انه كان معنا هنا ايضا في سيناء .. هذه حقيقة لمسناها . فما كدنا نعود سيرتنا الاولى ظمأ الى قطرة ماء ، والصحراء القائظة تضن علينا باعرابي نزحف الى قدميه على وجوهنا حتى حدثت المعجزة . سقط علي الذي كان الجوع يقتات على امعائه في هوة جرى موريس نحوها رغم ساقه الكليلة . وقف موريس لحظة على حافة الهوة كانما ليسترد انفاسه ، ثم اشار صائحا :

ـ صبار !! ..

كان علي يأكل بنهم شديد ثمرة تين شوكي دون ان ينزع قشرتها الرهيبة . تهالكت على ورقة مكتظة بالماء امتص رحيقها . في قريتنا يلوثون ثدي الام بمرارتها فيعافه الرضيع . . انها هنا الثدي الذي يهبني الحياة .. من قال انها الثدي الملوث ، انها الثدي الرحيم ، وانا السارق .. سارق اثداء الامهات .. شعور غريب انتابني في تلك الواحة الصغيرة عندما ارتويت ، بأني سلبت الصبار الماء الذي دأب على استخلاصه من الارض القاحلة الضنينة قطرة قطرة بصبر معجز اختزنه لحياته .. ليمد ثماره بالحياة .

قال علي :

ـ نظل هنا حتى ناتي على الصبار .

ـ كل الصبار ؟ .

ـ كله ..

ـ واهلك ؟ .

تركنا موريس واخذ يصعد ببطء شديد للجانب المقابل من الواحة، حركته تثقل .. ظللنا ليلتين بجواره حتى استطاع ان يقف على قدميه .. لم نبدأ السير الا في الليلة الثالثة . لم يكن الجرح هو مشكلته ـ هكذا قال لنا ـ سقط مغشيا عليه من شدة الظمأ .. نفعتنا كثيرا زمزمية الماء التي دفعتها الينا الفتاة سرا . حركته تثقل .. هذا شيء ملحوظ . كان اكثرنا حركة رغم ساقه الكليلة .. حتى بساقه الكليلة . كان من ذلك النوع الذي لا يركن الى الهدوء .. تقتله القعدة .

ـ اوحشاني ..

ـ من ؟

ـ امي وابني .

ـ وزوجتك ؟

زعق موريس باعلى صوته في غير حيطة :

ـ طريق !! ..

قفز علي الى جانبه يتأملان الطريق . لماذا نسي زوجته ، هل بينهما خلاف .. واي خلاف لا ينسى هنا ؟! .. هل .. ربما .. وربما نكون قد تعودنا الاختيار .. دائما يفرض علينا القحط وقلة الحيلة ان نرضى .. ان نختار ـ في ابتهالاتنا الى الله ـ من ضرورات الحياة اكثرها ضرورة .. من اكثرها اشدها .. من اشدها امسها .. واحدة فقط .. تلك التي لو فقدناها لفقدنا حياتنا .. لا نبتهل الى الله ان يمنحنا سواها . اتكون الرحلة قدعودتنا الاختيار .. ذلك الاختيار الاجباري المفروض بالضرورة .. ذلك الاختيار بلا حرية في الاختيار.. حتى بين احبابنا واصدقائنا وذوينا ؟! هذا مرعب !

●

كان طريقا طويلا ، وكانت هناك عربة كبيرة ، وخلف العربة دراجتان بخاريتان .. مشهد جنائزي صامت جمدته العدسة .

انتهكنا حرمته .. قفزنا الى كابينة السائق نبحث عن ماء . ظل موريس واقفا في اعلى المنحدر ، ساقه تثقل ، قال لنا ونحن نحاول تطهير الجرح ، انه كان يحس بنقر الطائر للجرح ، ولكنه لم يكن يقوى على رفع يده .. كانت تنتابه حالات افاقة لا يرجوها .. حالات يجدد خلالها كبده لينهشه الطائر من جديد . لم نجد شيئا ، عدت الى جوار موريس لا اجرؤ على مفاتحته في امر ساقه . لا يشكو .. ولكنه لا بد يعاني الما رهيبا . فلننطلق بالعربة .. مخاطرة كبيرة ولكن حالة موريس تستدعي التفكير فيها ، رغم كل شيء لننطلق بها حتى .. حتى نهاية الطريق . ففي نهايته حتما عمار .. ماء وقطن وشاش نظيف . هتف علي من فوق ظهر العربة ورنة فرح تغلف صوته .

ـ دي عربة تموين ! ..

نقلنا ما استطعنا حمله الى واحتنا الصغيرة ، كانت العربة محملة بكافة انواع المعلبات . انقبض صدري وانا احاول فتح احداها. كان « التعيين » يتأخر علينا كثيرا .. ظللنا مرة يوما كاملا دون طعام، ونحن رابضون في مواقعنا ننتظر الامر ببدء المعركة التي انتهت قبل ان تبدأ . وصلت عربة التموين وانزلت صفائح جبن كبيرة . سرى الخبر في صفوفنا فاعترتنا رعشة نشوى . خرجت منها رائحة كالقبر عند فتحها ، ابلغنا القيادة فاخطرتنا بأن غيرها في الطريق . انتظرنا يوما آخر بلا طعام . اخبرت صديقي بمخاوفي ففغر موريس فاه :

ـ وانتم ايضا !! ..

ـ الله .. وانتم ! ..

نكس رأسه ومط شفتيه . عدت اسأله :

ـ جبن ؟ ..

قال بأسى :

ـ كانت لحوما فاسدة .

اكلت ثلاث علب من البسلة ، رشفت ماءها قبل اكتمال فتحها . اعترتني رغبة ملحة في النوم . قدم لي موريس علبة كانت بيده :

ـ خذ كل . هذا فول .

قلت وانا اغالب النعاس :

ـ لا احب الفول .

ضحك علي لاول مرة ضحكة ذات صوت مسموع ، قلت من بين ابتسامة :

ـ نظل هنا حتى ناتي على العربة .

قال علي :

ـ امي مشلولة .

عدل موريس ساقه بكلتا يديه .

ـ وعصبية لا يطيقها غيري ..

وضع موريس يده على مؤخرته .

ـ وابني رضيع ..

كز موريس على اسنانه .

ـ تركته وما زال بالكاد يحبو .

القى موريس برأسه الى الخلف .

قلت وانا احاول نسيان الام موريس :

ـ علينا ان ندفن حمولة العربة في بطن الواحة .

قال موريس وهو يحاول مغالبة الامه واخفاءها :

ـ اكتب علينا ان ندفن هنا ؟ .

تركنا علي فجأة وجرى نحو العربة ، سمعنا تكتكات احدى الدراجات فعدوت نحو الطريق . كان علي قد ملأ خرجي دراجة بما اتسعتا له من العلب وانطلق بها . صرخ موريس الذي تمكن من الصعود اخيرا :

ـ اذاهب وحده ؟ ..

ـ وحده ..

ـ الى اين ؟! ..

ـ لا ادري ..

لفنا صمت رهيب ..

ـ ولكن ..
ـ ولكن كما ترى في غير طريق العودة .
ادركنا الموقف معا .
ـ بل انه ..
لم يكمل موريس عبارته .. ابتلع بقيتها كما يبتلع سجين ابدي رغبة تداعب احلامه منذ زمن ، ولا يملك تحقيقها . استقرت جمرات القهر في جوفه وهو يتطلع الى الافق مقيما وراءه واقعا جديدا .
بل انه طريق العودة .. قلها يا موريس ولا تخجل ، فلسنا نحن الذين هزمنا . الخونة هم الذين هزموا .. الجهلة هم الذين هزموا.. المخادعون هم الذين هزموا .. الكذابون هم الذين هزموا ..المغرورون هم الذين هزموا .. بكل ثقل الرحلة قلها ولا تخجل .

***

كان عظيما ، لم تخرب الرحلة روحه بعد . تذكرناهم ونحن ناكل .. اولئك الذين ما زالوا يقطعون جوعى صحراء بلا حدود . لكن علي كان حنما يتذكر ويفكر بطريقة غير طريقتنا . لم تستطع الرحلة بكل جبروتها ان تغرس في لحمه شوكها الصحراوي النهم .
عاد مرات .. يتزود بمؤونة جديدة وينطلق . يوزع الرحمة على فلول جيش لم يتح لـه الخونـــة والجهلة والمخادعون والكذابـون والمغرورون ان يشترك في معركة .
قال موريس :
ـ كيف لم نفكر في هذا ؟! .
قلت كالتائه :
ـ جاءت الفكرة لمن نفذها .
اختبأنا خلف حاجز من الصبار ، وظهرنا الى جدار من الحجارة. كان علينا ان نغطي ظهر علي .. ننبهه ـ على الاقل وبقدر قدراتنـا الضئيلة ـ الى اي بادرة خطر. كنا نرى الطريق والعربة بوضوح ولا تريانا . هذه المرة كان علي يتقد حماسا . مسح العرق عن جبهتـه بذراعه العارية ، وازاله عن عينيه باصبعيه ، ثم هم بالقفز الى ظهـر العربة من الخلف . كانت كفاه ما زالتا قابضتين على الحاجز الخلفي عندما سمعنا الصرخات : قف مكانك .. سلم نفسك .. ارفع يديك.. اركع على قدميك . انزلق علي تحت العربة منبطحا . لا بد انه كـان يريد ان يزحف تحتها حتى يصل الى عجلة القيـــادة . دوت الاف الطلقات ممزقة السكون . لم تستطع الدورية الاسرائيلية ان تقترب الا بعد ان قذفته بآلاف الطلقات .. ذخيرة فصيلة كاملة افرغتها دوريـة اسرائيل على هدفها .
كان جسد موريس ينتفض انتفاضات طائر ذبيح . رفعت الدورية الدراجتين البخاريتين الى ظهر العربة . دارت العربة لتصعدالمنحدر. في دورتها لم تأبه بجسد علي .. بل تعمدت ان تمر ببطء على جسده. تقهقرت ثانية وعادت لتسحق رأسه . وضعت كفي عـلى وجهي . صرخ موريس هم باللحاق بهم :
ـ يا كفرة يا اولاد دين الكلب .
القيت بجسمي فوقه محاولا تكميم فمه ، تخلص مـــن قبضتي بقوة لا اعرف كيف استطاع ان يجمعها . جذبته من ساقه فسقطنـا الى سفح الواحة . لم تسمعنا الدورية .. ربما نشوة النصر .. ربما بهيمية الانتقام .. ربما صوت المحرك . كان موريس يلهث فاقد الوعي. فككت الاربطة التي كنا قد ربطنا بها الجرح . انبعثت رائحة جيفة كريهة لم تردني عنه ، ولا الديدان التـــي تضخمت واستطالت وتكاثـــرت استطاعت ان تردني . تساقطت دموعي وانا ابحلق في الجرح الذي اتسع وازداد عمقه غورا . رأيت من خلف سحابة الدموع فتـاتي .. فتاة صغيرة ضئيلة لحست الشمس نور عينيها ، تقف امامي اثيرية بزمزمية ماء ، وانا اطهر الجرح من الديدان ؟

حلوان — محمد محمود عبد الرازق

اشراقة الصعود

« الى زوجتي ، وكنا معا ، بعد معركة الكرامة »

برغم هذا الليل يا رفيقتي الحزينه
برغم جرحنا الذي ينام واهنا على مشارف المدينه
كقطة تموء في رعونه
كقطة تموت في سكينه
ترود عيناها على وليدها ،
يلهو به الصغار
برغم هذا كله
برغم ما عانت شعوبنا من البوار
نغذ خطونا لرحلة انتصار
كما يغيب الليل مدبرا ،
سيقبل النهار .

***

لمحتها على جرائد الصباح والمساء
كنـا معـا ،
عيناك كانتا بحيرتي شقاء
وكنت حانيا عليهما ومشفقا
مهدهدا أساهما للحظة اللقاء .

***

وقفت كالصليب يا رفيقتي على مداخل « الكرامه »
باركتها شارعا شارعا
صليت خاشعا ،
على غبار بابها
حلمت أن أموت واقفا على ترابها
لا باكيا على الاطلال
لا نادبا ، لا راثيا من سقطوا ،
في حلبة القتال
فكل مـا يقال
أصغر من أن يطال
ردما من البيوت
أو زهرة تموت
أو حبة من التراب
مجبولة بأشرف الدماء
لمحتها على جرائد الصباح والمساء
البلدة الصبورة الجلود
لمحتها واغرورقت عيناي
تألقت اشراقة الصعود .

عمـان — محمد القيسي